مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 08 عدد: 05 السنة: 2019
ص: 311 - 328 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

سلطة السحر في المعتقد الأفريقي الوثني من خلال الرواية الأفريقية أعمال تشينوا اتشيبي أنموذجا

The Authority of Magic in the African Pagan Belief through the African Novel, Case Study: Chinua Achebe's Literary Works

[*] وردة لواتي

Ouarda Louati

المركز الجامعي الحاج موسى أق أخموك بتمنراست

مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي / جامعة الجزائر 2

University Center of Tamanghasset/ Algeria

تاريخ الإرسال:2019/05/11	تاريخ القبول: 2019/10/07	تاريخ النشر: 2019/12/01

ملخص البحث

لا يزال السحر كمفهوم وكممارسة يطرح علامات استفهام كبيرة، خاصة في المجتمعات الأفريقية الوثنية التي تتمحور حياتها حول هذه الممارسات السحرية والمعتقدات الدينية التي يكون فيها للساحر الكلمة الفيصل في كل ما تعلق بحياة الفرد والجماعة، ما يخول للفرد سلطة شرعية تمكنه من الارتقاء إلى رتب عليا كالكاهن والملك، وبالتالي فإن سلطته لا تتوقف عند حدود الممارسات السحرية والتحكم في عقول البشر؛ وإنما تتعداه لممارسة سلطة دينية وسياسية، وإصدار قرارات تحدد مصير البلاد والعباد على حد سواء.

ولم يكن هذا ببعيد عن إدراك العديد من الروائيين، إذ عمدوا إلى إبراز مواقفهم منه وبث أفكارهم ووجهات آرائهم ضمن بواكير أعمالهم الروائية، فكانت بمثابة الأداة الفاعلة التي يترجمون عبرها وعيهم للنسق الفكري الذي يدور في فلكه، ويعد تشينوا اتشيبي من المبدعين النادرين الذين تجرؤوا على اقتحام مثل هذه العوالم في محاولة منه لربط العلاقة وثيقة بين السحر والدين.

الكلمات المفتاح: السحر، المعتقد الوثني، الساحر، الطقوس، السلطة.

Abstract

As a concept and practice, Magic is still a major question especially in the pagan African societies whose life revolves around these

[*] وردة لواتي. firasziad21@yahoo.fr

magical practices and religious beliefs in which the magician has all control of everything related to the individual and community's lives. This gives him a legitimate power that elevates him to higher levels as a king or priest. Thus, his authority does not stop at the limits of magical practices and control of the human beings' minds; but rather, it extends to practicing religious and political authority, and making decisions that determine the fate of the country as well as the people.

Keywords: Magic, Pagan Religious Beliefs, Magician Power, Rituals.

مقدمة:

يؤدي السحر في المجتمعات الأفريقية ذات المعتقد الوثني دورا رياديا، فلا تقل حاجتها إليه عن حاجتها للطعام والشراب والهواء، فهو المحور الأساس الذي تدور في فلكه حياة أفرادها اليومية والدينية، فالممارسات السحرية بالنسبة للإنسان الأفريقي الوثني تعتبر بمثابة المتنفس الذي يعكس اعتقادا راسخا بوجود قوى حيوية فوق الطبيعة تتحكم به، وبالعالم الذي يحيط به، ما يجعله مضطرا للاستعانة برجال يعتقد فيهم القدرة على امتلاك قوى سحرية خارقة.

وتحت وطأة الإحساس بالضعف والخوف والحاجة إلى تحقيق رغباته، يجد أن لا مناص له من اللجوء لهؤلاء السحرة، والانتفاع بما يقدمونه من خدمات، وبالتالي يصبح رهين إملاءاتهم وشروطهم؛ التي تتمادى لتستعبده، فيتحول مع مرور الوقت إلى عبادة الساحر الذي يرتقي ليحتل مرتبة الكاهن أو الملك، بدل عبادة الآلهة العليا، والتضرع لأرواح الأجداد، وكنتيجة حتمية تنتقل سلطة الساحر من سلطة معنوية إلى سلطة دينية سياسية.

وضمن هذا الإطار حاول اتشيبي من خلال رواياته أن يعمق الفكرة ويدعمها عبر تضمينها في لبنات إبداعاته الروائية، مستشعرا أهمية السحر وتمحور حياة الناس حوله، فهو حاضر بقوة في الحرب والسلم، والحياة والموت، والزواج والولادة، والزرع والحصاد،... إنه سلطة في يد ممارسيه من السحرة، وملاذ لأصحاب الحاجات الملحة، وبين هذا وذاك يبقى للسحر وقعه في النفوس.

والإشكالية المطروحة هنا:

ما مدى سلطة السحر والساحر في المعتقد الأفريقي الوثني؟ وكيف يرتقي بممارساته السحرية؟ وكيف أبرز ذلك اتشيبي في رواياته؟

وقبل الإجابة عن الإشكالية المطروحة وجب علينا إزاحة اللثام عن مفهوم السحر خاصة لدى علماء الأنثروبولوجيا.

1-مفهوم السحر:

أ- السحر لغة[1]: إن للسحر في اللغة معاني عدة:

س ح ر أصول ثلاثة متباينة، أحدهما: عضو من الأعضاء، ثانيهما: خدع وشبهه، ثالثهما: وقت من الأوقات.

الأول: العضو السحر، وهو ما لصق بالحلقوم والمرئ من أعلى البطن يقال بل هي الرئة.

الثاني: السحر هو إخراج الباطل في صورة الحق ويقال الخديعة.

الثالث: الوقت فالسحر والسحرة، وهو قبل الصبح وجمع السحر أسحار ويقولون أتيت سحرا إذا كان اليوم بعينه، فإذا أراد بكرة وسحرا من الأسحار قال أتيتك سحرا. قال ابن سيدة: وجمع السحر أسحارا وسحور، ورجل ساحر وسحار من قوم سحرة[2].

أما مفهوم السحر في اللغات الأجنبية فهو مستمد من " الكلمة اليونانية « ماجيا » التي أول ما استخدمت كانت تشير إلى المراسم والطقوس التي يؤديها« ماجو » و الجمع « ماجوي » وقد قيل أن الماجوي أو الماجوس- هم كهنة سحرة من الشرق من « كلدو » وهي مملكة بابلية تقع جنوبي العراق أو فارس(...) وقد اشتقت كلمت الماجوس بالأساس من الكلمة الفارسية «ماكوز ». كانت لفظة « ماجيا » بالنسبة للإغريق في ذلك الوقت، وكان لديهم مفردات أخرى لوصف السحر؛ فقد كان لفظ « نيكومانتيشا » (استحضار الأرواح) مثلا يعني التواصل مع الموتى لأغراض تنبئية "[3].

وقد ظهر إلى جانب هذا المصطلح، مصطلح فارماكا والذي "يستخدم للتعاويذ وتحضير العقاقير والسموم التي يستخدمها المشعوذون أو الساحرات"[4]وقد شاع تزامننا مع المصطلحين الأخيرين مصطلح جويتس وتعني" المشعوذين الذين كانوا خبراء في الخداع وإلقاء التعاويذ"[5].

فقد حملت لفظة السحر على مر العصور معنى الخداع والكهنة والشعوذة وارتبطت ارتباطا وثيقا بالتعاويذ والاحتيال والممارسات المشبوهة التي كانت تقوم بها مجموعة تعرف باسم الماجوي[6]، حيث عرف عنها الإشراف على طقوس تقديم القرابين البشرية والحيوانية استرضاء للآلهة، وكذلك

محاولة السيطرة على الأرواح الهائمة للموتى، والإشراف على طقوس الإراقة، وتلاوة ترانيم مشبوهة تتزامن وشروق الشمس.

ب– مفهوم السحر اصطلاحا:

إن مفهوم السحر من المفاهيم صعبة الضبط والإحاطة، رغم المحاولات العديدة من طرف علماء الانثروبولوجيا وعلماء اللاهوت من أجل القبض على مفهومه المائع، وهذا مرده إلى المجالات المعقدة التي تتجاذبه كالدين، والعلم، والأسطورة، والخرافة، وارتباطه الشديد بالوهم والخوارق، والمعجزات، والخيال... فهو مصطلح جامع شامل ولهذا فإننا سنقاربه عبر بعض المفاهيم المنتقاة.

لقد تعرض **ديتكن ميشيل Detkin Michelle** إلى مفهوم السحر حينما اعتبر "أن السحر والشعوذة من المعتقدات والممارسات المعقدة التي تهتم بها المجتمعات القبلية التي تتميز بالبساطة والحياة البدائية (...) ويضيف على لسان« بريتشارد » لو أردنا فهم طبيعة المعتقدات والممارسات المتعلقة بالسحر، يجب علينا دراسة الحادثة المؤسفة التي يتعرض لها الفرد والجماعة، وأهم هذه الحوادث: المرض، الموت ،الفشل الزراعي، الزلازل، البراكين، الفيضانات، والجفاف"[7].

إن هذا المفهوم يقيم علاقة قوية بين السحر والمجتمعات البدائية الموغلة في البساطة والسذاجة فهذه الأخيرة حسبه تلجأ إلى ممارسة السحر وفق اعتقادها السائد بأنه كفيل برد الكوارث التي يمكن أن تتعرض لها وذلك من خلال ممارسات سحرية، ووفق طقوس خاصة تقوم بها تضمن لها السلامة والتوفيق، فالحاجة الملحة التي تفرضها الأزمة هي الدافع الأول وراء هذه الممارسات.

أما **مارسيل موس Marcial Moss** يعتقد أن السحر لا ينفك يخرج عن إطار ممارسات وتمثلات الأفراد، هذه الأخيرة الذي يضمنها التكرار كشرط لتحقيق الغاية المنشودة من ورائها وصفة الساحر تطلق على من يؤمن، ويمارس هذه الأفعال بغض النظر عن احترافيته من عدمه[8].

ونجد أن الألماني **أدولف أرمان Adolf Arman** يرى أن توجه السحر له منطلق ديني حينما اعتبر أن "السحر نبت وحشيا في واحة الدين، وهو عمل يهدف إلى التغلب على القوى التي تتصرف في مصير الإنسان، وأنه من الخير أن نتعرف كيف يمكن أن ينشأ الاعتقاد بإمكان القيام بمثل هذا العمل، قد يبدو أن الإله قد استجاب للدعاء تارة، ولم يستجب إلى الدعاء تارة أخرى، وعند ذلك يطرأ قسرا على الفكر أن العبارة التي صيغت فيها الدعاء أول مرة قد لقيت

عند الإله قبولا خاصا، لذلك يعد هذا التركيب أفضل تركيب من نوعه، ويغدو صيغة لا يلبث الإنسان أن يعتقد أن لها مفعولا لا يخيب، وأنها تقهر القدر"[9]، هذا ما يفسر الاتباع الحرفي للطقوس المتعلقة بنوع معين من السحر، فكان نجاحه من عدمه مرتبط بالتطبيق الحرفي لهذه الطقوس، وأي خروج عن النهج الصحيح قد يعرض صاحبه إلى خطر الفشل الذي قد يكلفه حياته.

وفي دراسة قام بها عالم الأنثربولوجيا **إيفانز بريتشارد Evans Pritchard** لشعب الأزاندي بأفريقيا الوسطى ذكر أن الأنشطة السحرية التي كانوا يمارسونها جاءت في إطار ديني سحري، وقد "ترجمت كلمة « مانجو» الأزاندية إلى « عرافة » من حيث أنها تعبر عن محنة تصيب المرء نتيجة لقوة فطرية لدى أشخاص (...) مستوحاة من مشاعر الحسد أو الغضب، في حين كانت لفظة «نجوا» تجمع إلى حد كبير بين السحر والطب في شكل العمل الطقسي، ثم جعل إيفانز «الشعوذة» صنفا قائما بذاته من السحر الأزاندي « النجوا » وعرفها بأنها استخدام تقنيات سحرية أو علاجات أو طقوس لإلحاق ضرر مشروع بالآخرين"[10].

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نشير إلى أن مفهوم السحر هو مفهوم مائع اتخذ أشكالا مختلفة تبعا لزاوية البحث التي تناولته، لكن يكاد يكون تمحوره حول ارتباطه بصفة واضحة بالمجتمعات البدائية والبسيطة، التي تفسر الظواهر الطبيعية تفسيرا غيبيا وتقيم العلاقة بينها وبين عالم الأرواح، والآلهة والأسلاف وذلك في ظل إطار ممنهج، وفق طقوس لا يمكن أن يحيد عنها، ولهذا اعتبر **جيمس فريزر James Fraser** أن السحر "عبارة عن نظام زائف للقوانين الطبيعية ومرشد مضلل للسلوك الإنساني"[11].

2- مبادئ السحر:

من بين الأبحاث التي أسهمت في اقتحام عالم السحر وتفكيك رموزه، ما قام به الأنثروبولوجي **جيمس فريزر James Fraser** في كاتبه الغصن الذهبي؛ حيث قام بتحليل مبادئ التفكير التي يقوم عليها السحر، فتوصل إلى قاعدتين أساسيتين:

أ-المبدأ الأول[12]: أو ما يعرف بقانون التشابه والمماثلة: ويعني أن الساحر بإمكانه أن ينتج أي تأثير يرغب فيه، ويكون ذلك بتقليده، ويطلق على هذا النوع من السحر؛ السحر المثلي، وهو مبني على ارتباط الأفكار بالتشابه أو التماثل، وهو مبدأ قائم على الاعتقاد بأن المثيل ينتج مثيله،

والشبيه يحدث شبيهه، وهو من المبادئ المتواترة الاتباع، حيث دأب السحرة على استخدامه بصفة كبيرة، كونه يستهدف إيذاء الخصم المقصود من خلال إيذاء ما يدل عليه كصورة أو دمية، مترافق مع تلاوة التراتيل السحرية أثناء العملية.

وقد ثبت ممارسة هذا النوع من السحر في بعض مناطق أفريقيا، إذ يسعى الساحر إلى الحصول على بعض الآثار من جسم الإنسان المقصود إيذاؤه، كقلامة أظافره أو خصلات من شعره، ويعمل على خلطه بشمع نحل مأخوذ من خلية مهجورة، ليصنع دمية مماثلة له، ثم يضعها على النار ويتلو تراتيله السحرية تزامنا مع ذلك، قاصدا من ورائها إلحاق الأذى بالشخص المقصود ثم يقوم بدفنها في مدافن القرية، ليلقى هذا الأخير حتفه مباشرة.

ب–المبدأ الثاني[13]: ويطلق عليه اسم قانون التلامس أو قانون الاحتكاك، والمقصود به التأثير الذي يحدثه الممارس له (الساحر) في شيء مادي معين، بحيث يكون هذا الأخير من حاجيات الشخص المراد أذيته بالسحر كاللباس مثلا، أو أي أثر من آثاره المادية، التي كانت على احتكاك مباشر به، أو ما كان يلامسه بطريقة مباشرة ولهذا سمي بسحر الاحتكاك أو الملامسة، ولا يقتصر هذا النمط من السحر على الإنسان فقط، بل يتعداه ليشمل عناصر الطبيعة كالشجر والحجر، والرياح، والحيوانات...

ونجد في بعض مناطق أفريقيا اعتقادا سائدا لدى الأهالي بأن الأشياء التي تندرج ضمن النوع الواحد تنجذب إلى بعضها البعض؛ من خلال انجذاب أرواحهم الكامنة فيهم، ويستدلون على هذا من خلال صيدهم للغزلان والخنازير البرية، حيث يقومون بتعليق عظام هذه الحيوانات في منازلهم بشكل جلي يغري هذه الحيوانات على الاقتراب من المنازل والوقوع في الفخ[14].

ويدخل هذا النمط من السحر– إضافة إلى النمط الأول — ضمن ما يعرف بالسحر التعاطفي، وإذا أمعنا النظر في السحر نجد أنه يتبع مجموعة من الخطوات والقواعد التي لا يجب أن يخرج عن نطاقها أو يحيذ عنها؛ وبالتالي هي تحدد تتابع الأفعال والممارسات في العالم، وهو ما يصطلح عليه بالسحر النظري، أما الجانب النفعي الذي يحققه الممارس للسحر من وراء هذه القواعد فهو أكيد الجانب التطبيقي، وهذا الأخير هو ما كان معروفا لدى الساحر البدائي بالرغم من وجود الجانب النظري وحرصه الشديد عليه، إلا أنه لم يكن يفصل بينهما بل كان يؤمن به إيمانا راسخا.

لم يكن السحر التعاطفي (المماثلة والاحتكاك) يكرس للأفعال التي تجلب الخير (كالصيد أو جلب العبيد، أو المساعدة على الولادة...) أو للأفعال الشريرة فقط (كالقتل، وإلحاق الأذى بالمرض أو الجنون...) بل كان يتراوح بين هذا وذاك، وقد عرف عن الإنسان البدائي حرصه الشديد على اتباع القوانين المنظمة للسحر؛ لإيمانه واعتقاده الجازم بأن الالتزام بنفس الطريقة يؤدي إلى نفس النتائج، فتجده يحاول جاهدا أن يوفر نفس الظروف ونفس الأسباب منعا لوقوع كوارث غير منتظرة، وهذا الحرص يدخل ضمن التابو(المحرمات والمقدسات).

وبالتالي فإننا نجد صنفين من السّحر: الايجابي؛ بمعنى نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج، في حين محاولة عدم الخطأ وتجنب وقوع ما لا يحمد عقباه هذا يدخل ضمن إطار السّحر السّلبي في الجانب التطبيقي أو انتهاك التابو أو المحرمات والمقدسات.

ومنه فالسّحر ينقسم إلى[15]:

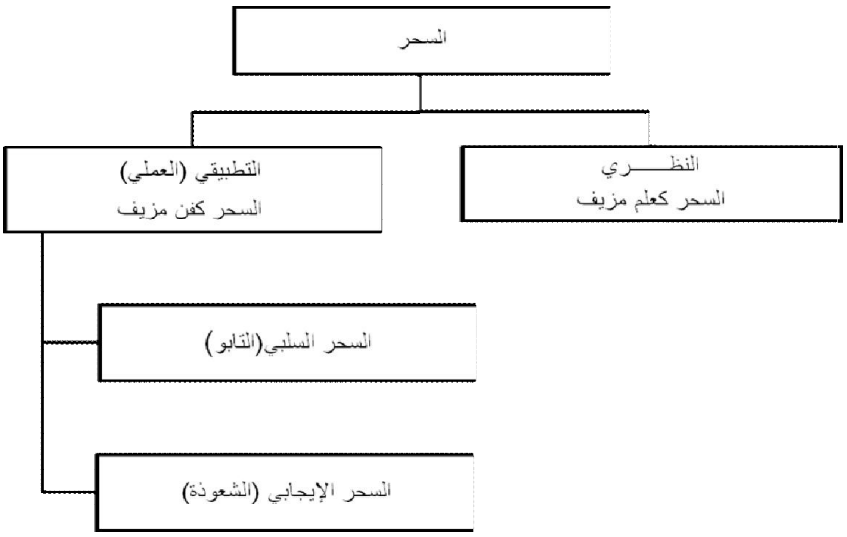

ومن الأمثلة على المقدسات أو التابو ما نجده لدى بعض القبائل الأفريقية من امتناعهم عن تناول أطعمة معينة أو المواد المشكلة لبعضها، كالامتناع عن أكل لحوم بعض الحيوانات التي تعرف بصفة الجبن اعتقادا منهم أن أكل لحمها بشكل متواتر يورثهم صفاتها (قانون المماثلة)، وهذا نوع

من السحر السلبي (التابو)، والعكس صحيح، بمعنى أن أكل لحوم الحيوانات الشجاعة يكسبهم هذه الصفة[16].

3- الارتقاء بالسحر وسلطة الساحر:

من الشائع بين الناس أن السحر بطقوسه وتعاويذه وتراتيله يمارس من أجل جلب منفعة شخصية، أو إلحاق الأذى بشخص بعينه (سحر فردي) ونحن لا ننكر وجود هذا النوع بصفة كبيرة في المجتمعات عامة، ولكن في الوقت ذاته لا يمكن أن نلغي وجود نوع آخر من السحر ارتبط بالجماعات البشرية؛ إذ تكرس فيها الطقوس السحرية من أجل تحقيق منفعة تشترك فيها كل الجماعة أو القبيلة (سحر جماعي) وهذا نجده في الاحتفالات العامة، والتي تنظم لأجل الصالح العام للقبيلة، وهنا يرتقي السحر من سحر فردي ليصبح سحر جماعي، الهدف منه رخاء القبيلة واعتلائها الصدارة بين القبائل من خلال الطقوس السحرية الحربية، و الزراعية، وطقوس إنزال المطر...

وفي هذا المقام وكمنفعة عرضية يرتقي معه الساحر من ساحر فردي إلى ساحر جماعي، وبالتالي تعلو مكانته، وقيمته بين جماعته خاصة إذا أدى الطقوس السحرية وكانت النتيجة إيجابية ونجح في مهمته السحرية التي غايتها استجلاب المطر، أو رد كارثة محتملة عن القبيلة، ما يجعل أبناءها يظهرون له التقدير الشديد، ويكافئون صنيعه بالاعتراف له بالقوة والقدرة على التأثير، فيرتقي إلى مصاف المبجلين وأصحاب النفوذ والسلطة، وقد شهدت بعض القبائل الأفريقية اعتلاء بعض السحرة مناصب مرموقة وأصبحوا كهانا وملوكا ورؤساء.

يعد السحرة من الأشخاص ذووا الذكاء العالي، وأصحاب الحصافة والقدرة على الإقناع والتأثير والسيطرة على عقول الناس، فرغم إدراكهم الداخلي أن ما يقومون به هو محض وهم وزيف، إلا أن مواهبهم وذكاءهم يمكنهم من تحويل الخيال والوهم إلى حقيقة قائمة يؤمن بها كل أفراد قبيلتهم، فيحسبون لهم ألف حساب.

يبدو أن الصيت الذائع للسحرة بتمتعهم بصفات جعلتهم يتميزون عن غيرهم، ويحتلون أعلى المراتب في مجتمعاتهم، قد بلغ إدراك الروائي اتشيبي و هذا ما جعلهم يحتلون حيزا لا بأس به من المساحة النصية لرواياته، ومنها ما أشارت إليه رواية **سهم الله** من خلال الأسطورة التي تتحدث عن صنع الآلهة، فقد كان أبطالها رجال من السحرة الأقوياء.

" استأجروا فريقا قويا من رجال السحر من أجل صنع إله شائع ومعروف وكان (أولو) هو الإله الذي صنعه الآباء للقرى الست، دفن نصفه هذا الفريق من رجال السحر في مكان عرف بعد ذلك بسوق (كوا) وألقوا بالنصف الآخر في الجدول الذي أصبح (مجرى أولو) ثم أطلق اسم (أمواروا) على القرى الست وصار قس (أولو) رئيسا للقساوسة ومنذ ذلك الحين لم يحدث أبدا أي اعتداء من العدو... "[17].

لقد لجأ الراوي ومن خلاله الكاتب إلى سرد أسطورة يؤمن بها أبناء القرية، حيث استحضرها ليوثق من خلالها ما يتميز به السحرة من قوة سحرية عظيمة؛ مكنتهم من التفوق في بعض الأحيان حتى على الآلهة، حين نُسب إليهم الفضل في صنع الإله الذي تؤمن به القرى الأفريقية الست، فقواهم السحرية في هذه الحالة لا تضاهيها قوى الآلهة.

ولهذا فإنك تجد لكل قبيلة ساحر واحد يبسط سيطرته على أفرادها من خلال ما يقدمه لهم من خدمات، فترتبط مصالحهم الفردية والعامة بقواه وقدراته السحرية، والنتيجة الحاصلة من وراء ذلك هو تمركز السلطة في يده، فإن صدقت نواياه اتجاه أبناء عشيرته فإنه يكرس ذكاءه وفطنته فيما يعود عليهم بالنفع، وهنا يكون نفعه أكثر من ضرره، أما إذا كان سيء السريرة فإن غرضه الأسمى ينحصر في الخداع ومحاولة بسط السيطرة والتحكم في مصائر الناس وتحقيق الجاه والثروة.

لقد تعمد الكاتب أن يوجه انتباهنا إلى أن السحر، ومن ثم الكهانة لا تهدى إلى الشخص فيجدها جاهزة دون أدنى جهد، بل يجب على الإنسان الذي يريد امتهانها أن يتعرض لتعلم الأسرار الخاصة بنواميسها، وقد صرح بذلك في نهاية المقطع الذي سبق عندما أخبرنا بأنه قد " تعلم أوكيك أونيني الكثير من طرق العلاج والسحر من والده لكن لم يتعلم قط ذلك السحر الخاص الذي يدعى oti-Anyo-ofu-uzo وكان إيزولو أحد الكهنة القلائل في (أمواروا) الذين يمارسون الطب والسحر ولأنهم كانوا يتمتعون بقوة غير محدودة حتى أن أوكيك أونيني دائما ما كان يردد أن السبب في ضعف العلاقة وعدم القبول بينه وبين إيزولو هو ذلك الفرق في القوة بينهما ..."[18]

كما لم تهمل روايات اتشيبي التيمة التي تكرس قدرات الساحر ووظائفه، بل أفردت لها مساحة معتبرة من نصوصه، فجاءت في رواية لم يعد **هناك إحساس بالراحة** في قول الراوي: " في

هذه اللحظة نفسها تحديدا، كان إيزاك أوكنكو قد انهمك في نقاش عن طريقة جلب المطر مع أحد الرجال العجائز الذي كان قد حضر للاحتفال معهم.

تساءل الرجل العجوز « ربما قد تود أن تقول لي أن بعض الرجال لا يستطيعون أن يرسلوا الرعد على أعدائهم » "[19].

إن الراوي في هذا المقطع، ربط العلاقة وطيدة بين الرجال الذين بإمكانهم إرسال الرعد بالمطر بصورة ضمنية، وإن لم يصرح بذلك بشكل مباشر، لكنه أقر لهم بطريقة لا تدع الشك بقدرتهم على الإتيان بالرعد الذي يتبعه المطر، فهو ينكر عليه عدم علمه بما يقوم به الكاهن (الساحر) الذي ارتقى بقدرته على الإتيان بالرعد و إنزال المطر.

وقد أكد على هذه الفكرة في مواضع عديدة من نصوص رواياته، حيث تظهر في المقطع التالي من رواية لم يعد هناك إحساس بالراحة : "ثم أتت الأمطار حقا، غزيرة ومتواصلة إلى حد أنه حتى صانع المطر في القرية لم يعد يدعي بأنه قادر على التدخل، فليس بوسعه الآن إيقاف المطر، تماما كما لم يكن سيحاول جلبه في ذروة الموسم الجاف، دون التعرض لخطر شديد يداهم صحته "[20].

إن سعي الكاتب حثيث لإثبات فكرة ارتباط الساحر (الكاهن) بنزول المطر في الأيام العادية، وذلك باستخدامه للقوى فوق الطبيعية التي يمتلكها، فهو المسؤول الوحيد عن نزول المطر، وبالتالي مسؤول عن رخاء القرية وثروتها، لأنه لا عيش للأهالي في غياب المطر، ومن هنا جاءت سلطته الألوهية والاعتقاد بأن روح الإله حلت في جسده لمنحه القدرة والقوة على تلبية حاجات البشر.

وبهذا ارتقت وظيفة الساحر بعد ما كان ممارسا خاصا ثم أصبح يمارس وظيفية عمومية، وهذا ما ينعكس انعكاسا مباشرا على العرف والتقاليد والمعتقدات السائدة في القبيلة، فالعرف في المجتمع يقضي بتولي أصحاب الحكمة والدهاء، والنظرة الثاقبة والقوة والمهارة مقاليد السلطة والحكم، وبما أن هذه الصفات قد تتوفر جلها أو أغلبها في الساحر فإنه يكون المرشح الأول لتولي زمام السلطة في البلاد (القبيلة)، فينتقل الحكم من الجماعة إلى الفرد ، وقد يحل النظام الملكي ما يؤدي إلى تغيير السلطة السياسية والإدارية تغيرا جذريا.

وقد عرفت العديد من المجتمعات مثل هذا التحول والانتقال عبر مر العصور، ويصرح المؤرخ الكبير **وليام دورانت william,durant (1861-1947)** مؤكدا أن الساحر قد تطور إلى أن

أصبح ساحرا عموميا ثم ملكا فقال: "إن منصب الملك قد نشأ من الساحر العمومي"[21]، وقد شهدت أفريقيا تطورا هائلا في وظيفة الساحر الزعيم، وخاصة الساحر صانع المطر الذي يدعي قدرته على جلب المطر في أيام القحط "فعند قبيلة واكندو، التي تعيش في وسط أفريقيا، عند أسفل جبل ثلجي كبير ومرتفع، عندما تشتد الحاجة إلى المطر، ويهدد الجفاف الزرع والضرع والبشر، فإنهم يطلبون من الساحر(...) صب الماء على الحجر السحري الأسود الخاص بإسقاط المطر"[22] ليقوم بطقوسه الخاصة موهما إياهم بقدرته على ذلك، وعادة ما يختار هؤلاء السحرة الزعماء بناء قراهم على سفوح الجبال ذات الارتفاع المتوسط، وهذا راجع لخبرتهم في طرق تشكل الغيوم المثقلة بالمطر، فهم يعلمون أن مثل هذه الجبال تجذب الغيوم المحملة بالمطر، فتصدق تنبؤاتهم.

والحال ذاته مع الساحر مدعي التحكم في الشمس والريح بواسطة الشعائر السحرية، وقد عرف عن قبائل البانثون في شرق أفريقيا أنه كان يحكمهم ملك أصله ساحر، ويذكر كذلك أنه في عام 1994 كان هناك حاكمان في نيجيريا مرهوبا الجانب نتيجة ما يتميزان به من قوة سحرية وبطش شديدين، وثروة هائلة تتكون من ماشية حصلا عليها من الهدايا المقدمة لهما نظير خدماتهما الجليلة[23].

كما تذكر كتب الأنثروبولوجيا أن قبائل الزولو كان لها زعيم وساحر صانع للمطر يدعى تشاكا أو(الشاكا) يصرح قائلا:"أنا المتنبئ والعراف الوحيد في القبيلة"[24] وهو بهذا يقطع الطريق أمام كل من تسول له نفسه أن ينافسه نفوذه، أو يزاحمه مكانته، وحتى يحمي نفسه من أي خطر أو تهديد؛ فوجود ساحر آخر في القبيلة قد يفضح زيفه وادعاءه.

ورغم كون مهنة الساحر العمومي كانت سببا في ارتقاء صاحبها إلى مرتبة الملوك الزعماء، وجعلته من الأثرياء الذين يحسب لهم ألف حساب، إلا أنها قد تكون أيضا سببا في عزله و قتله، فهي مهنة محفوفة بالمخاطر، فأبناء العشيرة يعتقدون اعتقادا جازما بامتلاك الساحر قدرات خارقة تمكنه من صناعة المطر، والتحكم في المناخ (الشمس والرياح)، وشفاء العليل وتحقيق الموسم الوافر، ورد الكوارث... وفي حال ثبوت العكس وفشل الساحر الملك وأصيبت القرية بكارثة معينة تتعلق بما سلف ذكره، فإنه يكون قد حكم على نفسه بالموت.

وقد ثبت في غرب أفريقيا فشل الساحر في إسقاط الأمطار بعدما جفت السماء "فعندما تفشل الصلوات والقرابين المقدسة المقدمة للملك في جلب الرخاء والمطر تقوم رعاياه بربطه في الحبال ويأخذ عنوة بالقوة إلى المقابر المدفون فيها الأجداد لكي يطلب منهم المطر"[25]، والحال ذاته لدى قبائل البانجارا في غرب أفريقيا إذ "لديهم الإيمان بأن ملكهم لديه القدرة والقوة على إسقاط المطر أو صنع المناخ الطيب المعتدل، وطالما كان المطر متوفرا والمناخ طيب ومعتدل، فيغدقوا الهدايا الثمينة عليه مثل أجولة القمح وقطعان الماشية، و لكن إذا حدث جفاف طويل (...) فيقومون بتوجيه الإهانات القاسية له وقد يضربوه(...) ضربا مبرحا موجعا، ويستمروا في ضربه وتوجيه الإهانات له يوميا حتى تتغير الأحوال وتسقط الأمطار"[26].

4- تأليه الساحر وتقديسه:

يبدو أن ساحر القبيلة لم يكتف بارتقائه إلى مرتبة الملك، بل تعداه ليسمو إلى مراتب التقديس والتأليه، فالساحر في قبيلته يحترم ويبجل ليس فقط لكونه يمتلك القدرة على إنزال المطر أو شفاء المرضى... وإنما لاعتقادهم الجازم أن الساحر وهو يمارس طقوسه السحرية يقوم في الوقت ذاته بالاتصال الروحي بالآلهة والأرواح (أرواح الأسلاف)، فهم مؤهلون في نظرهم لنزول الوحي الإلهي"ففي بعض المناطق في وسط أفريقيا يعتبر الملك (الراجا) أنه صاحب قوى علوية أي أنه يمتلك قوى فوق الطبيعة، وينظر إليه على أنه شخصية مقدسة"[27].

وقد أولى اتشيبي في رواياته أهمية لهذا الجانب من خلال متخيله الديني، رغبة منه في التنويه بهذه البنية الذهنية، فبرزت بشكل لافت من خلال الصيغ المختلفة للسرد المنصهرة في بنية الروايات، فالكاهن يؤدي دورا هاما في حياة الفرد والمجتمع الأفريقي، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتغاضى عن هذه الشخصية المحورية نظرا لارتباطها بكل ما هو ألوهي، والكاتب كان على وعي تام بذلك لهذا فقد ضمنها رواياته وعمل على الكشف عن علاقتها بالمعتقد الأفريقي، ودورها في الحفاظ على تماسك القبيلة.

تقدم لنا روايات اتشيبي أدلة وشواهد على ما يتبناه الكاتب من أفكار حول اعتقاد الألوهة في الكاهن، وما يحاط به من هالة من القداسة لا تقل شأنا عن تلك المتعلقة بأرواح الأسلاف أو الآلهة والأرباب، كيف لا وقد أُلّه الكاهن حينما كان الحد الفاصل بين الألوهي والإنساني غير

واضح، وأصبح ندا للآلهة، وكفؤا لتحمل مسؤولية الكهنوتية، والكاتب يؤكد هذه الفكرة ضمن روايته **سهم الله** ، والتي تبرز في هذا المقطع :

" نعم إنه لمن الصواب أن يواجه كبير الكهنة الخطر قبل أن يصل إلى شعبه، إنها مسؤولية الكهنوتية كما حدث يوم أن اجتمعت القرى الست وقالوا لجد إيزولو: سوف تتحمل الألوهية من أجلنا "[28].

فالكاتب بفكره الواعي يدفع القارئ إلى التسليم بما يروج له من أفكار عن الساحر(الكاهن)، الذي يرى حسب اعتقاده أنه مكلف بحمل أعباء الألوهية على عاتقه إكراما لأبناء قبيلته الذين يرون فيه المخلص والمعين، والنائب الشرعي للآلهة عند البشر، ولهذا فلا مناص له من ذلك.

وضمن هذا الإطار نجد أن الكاهن قد ارتبط اسمه بالنبوءات والشفاء من الأمراض، وطرد اللعنات التي تحل بالناس نتيجة بعض الممارسات المشبوهة من طرف بعض العرافين، الذين يستخدمون السحر لأذى الناس، أو بسبب انتهاك التابو عن قصد أو بغير قصد، وقد أسس الكاتب لهذه الفكرة وضمنها فصول رواياته، ومنها ما نجده في رواية **الأشياء تتداعى**:

" توقفت عن الحديث، ففي تلك اللحظة بالذات حطم صوت مرتفع عالي الطبقة صمت الليل، كانت تشيلو كاهنة أجبالا تتنبأ. لم يكن هناك جديد في الأمر. فبين فترة وأخرى كانت روح إله تشيلو تتقمصها فتبدأ بالتنبؤ وتحياتها كانت موجهة هذه الليلة إلى أوكونكوو، لدى أصغى جميع أفراد العائلة إليها. وتوقفت الحكايات الشعبية (...) في هذه الأثناء، وصلت الكاهنة إلى منزل أوكونكوو، وبدأت تتحدث معه خارج كوخه. ظلت تكرر المرة تلو المرة أن أجبالا يريد رؤية ابنته إيزينما. ورجاها أوكونكوو أن تعود في الصباح "[29].

يصر الكاتب على ذكر بعض الطقوس التي تقوم بها الكاهنة (الساحرة)، والتي تتزامن وتقمص روح أجبالا لها، فالكهنة (السحرة) عادة ما يتلفظون بكلام غير مفهوم بغرض ترك انطباع الخوف والرهبة، وإضفاء نوع من الغموض على ممارساتهم لتزيد من سلطتهم وسطوتهم، والشاهد على ذلك قوله " صرخت الكاهنة فجأة، حذرته: « احذر يا أوكونكوو! احذر من تبادل الكلام مع أجبالا. هل يتكلم الإنسان حين يتكلم الإله؟ احذر! » "[30].

فإذا كانت بطقوسها وعباراتها السابقة توهم الناس بقوتها وسلطتها الإلهية، فإنها لم تكتف بذلك بل انتقلت لتصرح به مباشرة، من خلال هذا التحذير وتؤكد ارتباطها الفعلي بالآلهة،

وقدرتها على الإيذاء وتسليط العقوبات التي هي في الأساس — حسب اعتقادها – نابعة من غضب الإله.

لقد أصبح الفرد الأفريقي الوثني لا يفرق بين الإنسان المبجل والمقدس وألغى الحدود الفاصلة بينه وبين الآلهة، ما جعله يعتقد أن الساحر الذي يمتلك قوى فوق الطبيعة قد يرتقي ليصل إلى درجة الألوهة المشخصنة، فحسب اعتقاده– دائما– طالما امتلك الساحر هذه القوى الخارقة واتصل بالوحي(الآلهة) والأرواح فإن هذا كفيل بأن تتقمص روح القوى العليا جسده ومنها اكتسب الساحر الملك قدسيته وربوبيته؛ فاعتبر إله في جسد بشر ينوب عن الإله الأعلى الذي لا يستطع الوصول إليه، فهو بعيد عنه كل البعد.

ربما هذا يفسر اعتقاد الإنسان الأفريقي الوثني عن الآلهة العليا بأنها لا تفوق بقواها فوق الطبيعية قوى بعض الأفراد من البشر، الذين باستطاعتهم الارتقاء إلى مستواها، وبإمكانهم التأثير عليها بالترغيب (من خلال القرابين)، أو حتى بالترهيب للرضوخ إلى طلباتهم وتغير أقدارهم، فقد ثبت في بعض الأساطير الأفريقية عن الآلهة جرأة الإنسان على إيذاء الآلهة أو عصيانها، من خلال إلحاق صفة البشرية بها وأسطورة أوباتالا وشانجو تبين هذا، " فقد أراد أوباتالا*يوما أن يذهب لزيارة صديقه شانجو Shango فظهرت له العلامات تحذره، وقال الكاهن للعراف البابالو Babalawo: « لا تذهب أوباتالا فسوف تجلب الرحلة العناء، وقد يكون الموت أيضا»، ولكن أوباتالا أصر على الرحيل، فقدم الكاهن القرابين لصرف الموت عن طريقه (...) وبدأ أوباتالا رحلته إلى شانجو، فما إن سار قليلا حتى رأى إيشو الإله المعاكس جالسا على جانب الطريق، وفي يده وعاء مملوء بالزيت"[31]...

فالأسطورة مازالت متواصلة وهي توثق الاعتقاد الأفريقي الوثني بشخصنة (أنسنة) الآلهة و الشواهد على ذلك في الأساطير الأفريقية عديدة، وكلها تصب في نفس السياق، ويذكر **هوبير ديشان*** **Hubert Deschamps**أن قبائل أعالي النيل كانت تتوجه إلى رسول الإله الأعظم بالتضرع وتخصه بالتقديس هذا الرسول هو نفسه مؤسس القبيلة المختفي أثناء العاصفة الهوجاء، ويتجسد تبجيله وتقديسه وقدرته في شخص رئيس القبيلة عندما يعتلي العرش[32].

لقد ارتقى الساحر بقوة دهائه وقدرته على الإقناع والتأثير إلى مرتبة الملك الإله أو الرب الذي تتجسد فيه صفات الربوبية أو القوى فوق الطبيعية، وارتقت معه الطقوس السحرية لتصبح طقوسا

دينية، فكان الإيمان بوجد اتصال بين الجسد والروح والقوى العلوية (فوق الطبيعية) بداية الخطوة الأولى التي خطاها الإنسان البدائي نحو الدين.

5- السحر باعتباره دينا بدائيا:

كان من الممكن أن نطرح تساؤلا مغايرا، وننحى منحى مختلفا انطلاقا من المبادئ العامة للسحر التعاطفي بنمطيه (سحر المماثلة، وسحر الاحتكاك) باعتبار أنه تبنى النظرية القائلة بأن نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج؛ بمعنى توجه السحر توجها علميا غير مقصود بدرجة تطغى على الجانب الروحي في عملية ممارسة السحر، حيث كان هناك نوع من الاتصال بالقوى العليا ومحاولة استرضائها واستعطافها؛ من خلال تقديم القرابين بأنواعها من أجل تحقيق غايات السحر المرجوة، والشاهد على ذلك ما جاء في هذا المقطع من رواية **الأشياء تتداعى**:

" كان عيد اليام الجديد يجري كل سنة قبل بدء الحصاد لتكريم ربة الأرض وأرواح أجداد العشيرة. ولا يمكن أكل اليام الجديد قبل تقديم نصيب منه إلى تلك القوى. وكان الرجال والنساء، صغارا وكبارا، يتطلعون بشوق إلى مهرجان اليام الجديد لأنه يمثل بداية موسم الوفرة."[33]

إن الروائي يحاول أن يقيم علاقة شرعية بين الدين والسحر واعتبار هذا الأخير مقدمة منطقية لظهور الدين، وذلك عبر الطقوس الممارسة في مناسبات معينة كموسم الزرع والحصاد على سبيل الذكر لا الحصر اللذان ارتبطا بطقوس تكرس اعتقادا راسخا بوجود قوى حيوية تتحكم في وفرة المحصول من عدمه، وعلى هذا الأساس اكتسب هذا الاعتقاد طابع الدين المتبع لدى الإنسان الوثني.

فالاعتقاد بوجود قوى عليا فوق طبيعية يعزى إليها التحكم في قوى الطبيعة ومحاولة استرضائها والتضرع إليها بشتى القرابين، يجعل بإمكاننا التحدث عن وجود ما يمكن اعتباره دين بدائي، فوجود القوى العليا ما فوق الطبيعية والممارسات السحرية (الروحية) تضمن حضور ركنين أساسين للدين، "فطبقا لمبادئ العلم، ومبادئ السحر لا يمكن تغير مسار الطبيعة بإغراء الآلهة والأرباب أو بتقديم الصلوات والقرابين لهم، أما طبقا للدين فإنه يمكن تغيير ناموس الحياة وقوانين الطبيعة باستعطاف واسترضاء الكائن الأعلى، أو بالتهديدات وبالإكراه التي توجه للكائن الأعلى"[34].

فالسحر على هذا الأساس يلجأ في ممارساته إلى كائنات روحية عليا، ولكنه يتعامل معها وكأنها كائنات طبيعية دنيا، حيث يعمل في أغلب الأحيان على إلزامها بتنفيذ أوامره، وهذا ما يتناقض

مع الدين الذي يسعى إلى استرضاء هذه القوى الروحية العليا، ومع هذا فقد بين المؤرخ **ماسبيرو Mespero** "أنه يجب علينا ألا نربط لفظ السحر بأي أفكار منحطة، كما هو السائد في عصرنا الحديث، إذ إن السحر القديم كان الأساس الجوهري للدين"[35]، وليس ببعيد عن هذه الأفكار، صرح الفيلسوف هيجل منذ زمن بعيد: "بأن عصرا ساد فيه السحر قد سبق عصر الدين في تاريخ الحضارة الإنسانية "[36].

النتائج:

لقد توصلنا من خلال مقاربة السحر في المعتقد الأفريقي الوثني وسلطته في الرواية الأفريقية من خلال أعمال تشينوا اتشيبي إلى أن:

الروائي أولى أهمية بالغة لمفهوم السحر من الناحية الأنثروبولوجيا، وكرس متخيله الروائي ليبرز اختلافه عما هو عليه في مجالات أخرى، حيث يرتبط هنا بالمعتقدات والممارسات المعقدة التي تقيم لها المجتمعات القبلية البدائية بالا، وتعظم من شأنها لأنها تتصل اتصالا وثيقا بتفاصيل حياتها اليومية عامة، وبحياتها الروحية والعقدية خاصة.

كما بين عبر بنى رواياته أن السحر نشأ في بدايته الأولى مزامنا للعلم على اعتبار أن الطقوس السحرية الممارسة آنذاك تؤمن بأن نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج، دون أن يكون ذلك بقصدية مبيتة، وفي وقت لاحق انبثق الدين عن السحر ونشأ من خاصرته بفضل الارتباط الطقوسي بالأرواح، أرواح الآلهة المتجسدة في البشر من السحرة.

هذا ما يفسر سعي الروائي إلى إجلاء حقيقة السبيل الذي ينتهجه السحرة رغبة منهم في علو المكانة والارتقاء إلى مصاف الكهان والملوك، واعتلاء عروش القبائل، ليستمر ارتقاؤهم حتى يبلغوا مرتبة الألوهية، فكانوا أربابا نوابا عن الآلهة.

لم يتوان الروائي في تسليط الضوء – من خلال متخيله الروائي – على إيمان الإنسان البدائي الأفريقي بالسحر بكل أنماطه ، فهو إيمان راسخ لا يمكن أن يمحوه الزمن، كونه ارتقى لينشأ عنه دين وإن كان بدائي وثني، فهو يعبر عن اعتقاد خاص به يحقق له رغباته ويحميه من كل ما يؤديه ويخيفه، ويضمن له الرخاء والرفاهية، والأهم من ذلك يحقق له الإشباع الروحي.

و يظهر لنا الساحر في القبيلة الأفريقية البدائية الوثنية من خلال روايات اتشيبي أنه يحتل مكانة مرموقة، فدوره لم يتوقف عند حد خلط العقاقير وشفاء المرضى، بل تعداه لصناعة المطر،

وجلب المناخ الطيب، والتحكم في قوى الطبيعة، ورد الكوارث الطبيعية بكل أشكالها ما أهله ليعتلي عرش الملوك ويجسد أرواح الآلهة في شخصه .

هوامش:

[1] أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الحلبي وآخرون، معجم مقاييس اللغة، مصر،1970،ط2، مادة سحر، ص183.

[2] أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،1996،ص22.

[3] أوين ديفيز، مقدمة قصيرة جدا- السحر، ترجمة رحاب صلاح الدين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2014، ط1، ص8.

[4] المرجع نفسه، ص8.

[5] نفسه، ص8.

[6] نفسه، ص9.

[7] دينكن ميشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت، ص 134-135.

[8] Mauss Marcel, sociologie et anthropologie, presses universitaires de France,8 éditions, 1999,10-11

[9] أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة عبد المنعم أبوبكر وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997، ص395.

[10] أوين ديفيز، السحر، ص 30-31.

[11] محمد عبد الحميد محمد أبو زيد، الإنسان والأساطير والسحر، من وحي الغصن الذهبي لجيمس فريزر، دار العالم الثالث، ج1، ص20.

[12] ينظر المرجع نفسه، ص20،22.

[13] ينظر المرجع نفسه، ص 20،22.

[14] ينظر المرجع نفسه، ص 27.

[15] المرجع نفسه ،ص 30.

[16] ينظر نفسه، ص32.

[17] تشينوا اتشيبي، سهم الله، تر: سمير عبد ربه، المركز القومي للترجمة، مصر، 2014، ط1، ص34.

[18] المصدر نفسه، ص 246.

[19] تشينوا اتشيبي، لم يعد هناك إحساس بالراحة، تر: أمال علي مظهر، المركز القومي للترجمة، مصر، 2016، ط1، ص67.

[20] المصدر نفسه، ص40.

[21] محمد عبد الحميد أبو زيد، الإنسان والأساطير والسحر، ص 101.

[22] نفسه، ص 90.

[23] ينظر المرجع نفسه، ص100.

[24] المرجع نفسه، ص 101.

[25] المرجع نفسه، ص 102.

[26] نفسه، ص 102.

[27] نفسه، ص 104.

* أوباتالا: إله من آلهة أفريقيا.

[28] تشينوا اتشيبي، سهم الله، ص 309.

[29] تشينوا اتشيبي، الأشياء تتداعى،تر: سمير عزت نصار، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 2002، ط1، ص112،111.

[30] المصدر نفسه، ص 112.

[31] الحسيني الحسيني معدي، الأساطير الأفريقية، كنوز للنشر والتوزيع، مصر، ص37.

* هوبير ديشان: أستاذ بمعهد الأجناس البشرية، وبمعهد الدراسات السياسية بجامعة باريس، وقد شغل منصب حاكم المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا.

[32] ينظر هوبير ديشان، الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، المركز القومي للترجمة، مصر، 2011، العدد 1969، ص49.

[33] تشينوا اتشيبي، الأشياء تتداعى، ص 43.

[34] محمد عبد الحميد محمد أبو زيد، الإنسان والأساطير والسحر، ص 63.

[35] نفسه ، ص65.

[36] فراس السواح، دين الإنسان، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، منشورات دار علاء الدين، سوريا، ص 191.